د. عبد الرحمن حللي
أستاذ مشارك في التفسير وعلوم القرآن، كلية الشريعة
والدراسات الإسلامية - جامعة قطر

إعادة اكتشاف التُراث الثانية في عصر الذكاء الاصطناعي

قبل ربع قرن من الآن كان على طالب الدراسات العليا في تخصُّصات ذات صلة بالتراث الإسلامي أن يصحب معه كراسًا وحزمة من البطاقات، ويجلس مرابطًا لساعات في واحدة من المكتبات العامة أو الخاصة، يتناول كتابًا تلو آخر، ويقرأ صفحات مطوَّلة لينسخ منها أفكارًا جزئية لتكون مصدرًا له في رسالته أو أطروحته، ولو جنح به الخيال فرجع قرنين أو ثلاثة إلى الوراء لوجد نفسه في رفاه رفيع وهو يقرأ كتبًا مطبوعة مرصوفة أمامه بأبهى حُلة. كما إنه ما كان متاحًا لعالِم قبل قرنين من الزمان أن يطَّلع على كم كبير من المُصنفات التراثية في مختلف العلوم مما كان مخطوطًا قد طواه النسيان قبل أن يحيا في وعي الأجيال الجديدة في عصر الطباعة حين أعادت اكتشاف التراث، فالعالِم اليوم أوثقُ صلةً وأوسعُ معرفةً بكتب التراث من نظير له عاش في الحواضر الإسلامية قبل ثلاثة قرون، فلم تكن -كما تتبَّع أحمد شمسي[1] أسواق الكتب ودكاكين الورَّاقين -في ذلك الزمن- تحوي «تفسير الطبري» ولا «مقدمة ابن خلدون» ولا كتاب «الأم» للشافعي، وغيرها الكثير. لقد كان لاستخراج نفائس كتب التراث المنسيَّة وإعادة طباعتها حظٌّ وافرٌ في إثارة النقاشات حول مختلف قضايا التاريخ والأدب والفقه، وفي فتح أبوابٍ واسعةٍ لفهم أبعاد الثقافة الإسلامية وتاريخها وعلومها.

والباحث اليوم وهو يتصفح على حاسوبه آلاف الكتب والنصوص التراثية ويصل إلى مبتغاه منها في دقائق معدودة، سيجد غرابة أشد بينه وبين عالم المعرفة قبل ربع قرن، فضلاً عن الحال قبل قرنين، فما وفرته التقنية اليوم من وسائل لخدمة التراث وتسهيل الوصول إليه أحدث سيولة في المعلومات، فهي إن وفَّرت المعلومات الضرورية من جهة، فإنها زادت من مصاعب التحكم بها وحسن استثمارها من جهة أخرى، ومع ذلك، لم تغيُّر الأدوات الرقمية من وسائل النظر في المصادر وتحليلها ومقارنتها، فما تزال كما هي مراحل ضرورية ينبغي المرور بها في الدرس التراثي، فإن ما أحدثته الرقمنة هو تذليل الوصول إلى المصادر والمعلومات والبحث عنها في المصادر وتسخيرها بين يدي الباحث الذي يظل هو الأصل والعمدة في البحث العلمي.

هذا الرفاه الرقمي في التعامل مع مصادر التراث الذي سرى سريعًا بين علماء التراث دون إدراك منهم للتحوُّل الهائل الذي أحدثه سيكون قريبًا شيئًا من الماضي، ولم يكن له على أهميته التي تفوق من حيث الكم والنوع أهمية عالم الطباعة أثره المعرفي في تطوُّر الفكر والتجديد، فلقد أحدث عالم الطباعة ثورة مكنت من إعادة اكتشاف التراث، وانعكس أثرها نوعيًا في تجديد العلوم وفهم تاريخها وتحليل نصوصها، الأمر الذي لم تحدثه الرقمنة، فالإنتاج العلمي المتصل بالتراث في عصر الطباعة الحديث يعدل في أهميته كمًا ونوعًا المُنتج المعرفي لقرون مضت قبله في حقول مختلفة من العلوم التراثية. وعما قريب يُتوقع أن تحدث ثورة جديدة تُمهد لإعادة الاكتشاف الثاني للتراث العربي الإسلامي تفوق في أهميتها الاكتشاف الأول في عالم الطباعة وما تبعه من رفاه عالم الرقمنة.

إن الآفاق الواعدة لإمكانات الذكاء الاصطناعي التي يتسارع اكتشافها يومًا بعد آخر، ستوفر فرصًا جديدة لا لتذليل التراث وخدمته فحسب، بل سيكون من شأنها أن تصحح معرفتنا بالتراث، وأن تكشف لنا عن الكنوز المهملة فيه، وستنحسر أدوار الباحثين في التراث والمحققين من المركز إلى الهامش، وسيكون التحدي الأكبر هو القدرة على استيعاب صدمات ربما تُكتشف، والتحقق منها، واختبارها وإعادة بناء التصوُّرات عن تاريخ الأفكار والعلوم على أساسها. والأدهى من ذلك أن أنماط الذكاء الاصطناعي التي يمكن أن تظهر قد تشاغب على أدوار المُفسِّر والمُحدِّث والفقيه والمُتكلم والمُؤرِّخ والمُحقِّق، بل والأديب والشاعر واللغوي والمُترجم، وستفرض تحوُّلات عميقة في التعليم والبحث العلمي، وهذا يقتضي التهيؤ لطرق جديدة في النظر إلى التراث استكشافًا لا تقريرًا، والتعامل الإيجابي في استثمار تلك التطوُّرات القادمة والعمل على تسديد صوابها وتصحيح أخطائها.

إن الآفاق الواعدة المُمكنة لتوظيف الذكاء الاصطناعي في علوم اللغة العربية والتراث بمختلف تخصصاته هي أعمق بكثير من التصوُّرات الساذجة والأحكام المرتجلة المبنية على هلوسات تظهر في إجابات أدوات الذكاء الاصطناعي غير المدربة على اللغة العربية ومصادرها، والتي هي من أقل اللغات في نسبة المحتوى المتاح في الفضاء الرقمي. ويكفي لمعرفة تلك الآفاق محاورة محركات الذكاء الاصطناعي نفسه عن إمكاناته التي يمكن أن يوفرها في هذا المجال، إذ يمكنه تحويل المخطوطات إلى نصوص قابلة للبحث والتحليل باستخدام تقنيات التعرف الضوئي على الحروف (Optical Character Recognition) المتقدمة المدربة على الخط العربي القديم، ومقارنة النسخ، وإمكان استعادة النصوص التالفة أو الناقصة باستخدام تقنيات التنبؤ النَّصي، وترميم الصور والمخطوطات القديمة باستخدام الذكاء الاصطناعي في معالجة الصور.

ومن الأمور الأسهل تصنيف المحتوى حسب الموضوعات باستخدام نماذج تعلُّم الآلة، واكتشاف النصوص المكررة أو المتشابهة عبر العصور، مما يساعد في تتبع تطوُّر الأفكار والمصطلحات، وفي

1 - يؤرخ أحمد شمسي في كتابه «إعادة اكتشاف التراث الإسلامي الكلاسيكي: كيف غيرت ثقافة الطباعة والتحقيق عالمنا الفكري» (ترجمة مركز نهوض بالكويت 2022) للتحولات التي أحدثها عالم الطباعة والتحقيق، وما وفره من إمكانيات لاكتشاف التراث الإسلامي الذي كان مغيبًا عن الحركة العلمية والفكرية في العالم الإسلامي قبل اكتشاف الطباعة.

المجال اللغوي يعدنا بتحليل الأساليب البلاغية واللغوية في النصوص القرآنية والحديثية والتراثية، واستخراج المفاهيم والمصطلحات الشرعية وربطها بسياقاتها التاريخية والاجتماعية، وبناء معاجم ذكية تربط بين المفردات التراثية ومعانيها في السياقات المختلفة. ويذهب أبعد من ذلك إلى بناء نماذج معرفية تربط بين العلماء، والكتب، والمدارس الفكرية، والموضوعات، ورحلاتهم، ولقاءاتهم، بل وبناء شِفرة للعالِم وأسلوبه ولغته تُمكن من اكتشاف نَصه. وسيكون من الممكن تحليل تأثير العلماء والمدارس الفكرية على بعضها البعض باستخدام تقنيات الشبكات، بل ورصد التفاعل بين الثقافات والحضارات وتأثر بعضها ببعض لغويًا وعلميًا، وصولاً إلى ترجمة النصوص التراثية وإيصال معانيها إلى من لا يتقن لغتها. وفي مجال التعليم والتفاعل يمكن إنشاء مساعدات تعليمية ذكية تشرح المفاهيم التراثية بلغة معاصرة، ومحاكاة الحوارات الفقهية أو الكلامية بين العلماء باستخدام نماذج لغوية، وتوليد اختبارات تعليمية تفاعلية لفهم التراث بطريقة مبسطة.

إن التجارب تشير إلى واقعية هذه الآفاق وتحقق بعضها، لكن ثمة تحديات تؤخر من دقتها وموثوقيتها، أبرزها تقصير الجهات المعنية والخبراء في التراث في تدريب نماذج الذكاء الاصطناعي على اللغة العربية الفصحى وعلى مصادر التراث الإسلامي بعلومه المختلفة، فالتجارب الرائجة والسخية على نماذج الذكاء الاصطناعي العربية متجهة إلى الشأن اليومي والحياتي والخدمات وآفاق الاستثمار فيه، وهي في معظمها غير معنية بالتدريب على العلوم والمعارف المتخصِّصة، واللغة العربية العالية، فهذه بحاجة إلى مشاريع ضخمة تُمولها دول ومؤسسات تحمل همومًا حضارية، وتنوء بثقل الحفاظ على اللغة العربية والهوية الإسلامية. وإن من أهم ما ينبغي الالتفات إليه في مشاريع محتملة في هذا المجال، أن يتولى خبراء اللغة والتراث والعلوم الإسلامية مهمة التوجيه لكيفية التدريب لأدوات الذكاء الاصطناعي، بعد تدريبهم وتثقيفهم بالإمكانات الهائلة لاستثماره، فمهما بلغت معرفة الخبير التقني باللغة العربية لن يدرك خصوصية كل علم والآفاق الممكنة فيه. لنتأمل قليلاً –كمثال– كم ستكون لغة الذكاء الاصطناعي متطوِّرة فيما لو دُرِّب نموذج منه على اللغة العربية من خلال معاجم اللغة العربية الرقمية والموسوعات الشعرية العربية وأمهات كتب الأدب العربي، كم ستكون النتائج مذهلة. وأقترح في هذا الإطار أن توفر الجامعة دبلومًا لدارسي العلوم الإنسانية يمكنهم من امتلاك المعارف الضرورية في الذكاء الاصطناعي، ويؤهلهم لقيادة برامج تدريبية مستقبلية لأدوات تتصل بتخصُّصاتهم.